روائع لغوية
(١)

من الإعجاز القرآني

تعدد أوجه الإعراب في الجملة

الدكتور
محمد حماسة عبد اللطيف



مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

روائع لغوية
(١)

من الإعجاز القرآني

تعدد أوجه الإعراب في الجملة

الدكتور
محمد حماسة عبد اللطيف

مكتبة الإمام البخاري

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٧٢٠ / ٢٠٠٩م

I S B N
978- 977- 481- 028- 2

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر - إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عبد اللطيف ، محمد حماسة .

من الإعجاز القرآني : تعدد أوجه الإعراب في الجملة / محمد حماسة عبد اللطيف . - ط١ . - القاهرة : مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٩ .

٤٨ ص ؛ ٢٠ سم . - (روائع لغوية ؛ ١)

تدمك ٢ ٠٢٨ ٤٨١ ٩٧٧ ٩٨٧

١- القرآن - إعجاز

٢- القرآن - إعراب

أ - العنوان ٢٢٩,٧

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

القاهرة : ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر - ت ٢٥١٤٤٠٧٢
جوال ٠١٢/٣٦٧٦٧٩٧ - ٠١٠/٦١١٨٦١١٤

المحتويات

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن
يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ
وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

[الاسراء : ٨٨]

مُقَــدِّمَة

لقد تحدّى الله - سبحانه وتعالى - العَرَب عندما نزل القرآن على رسوله ﷺ أن يأتوا بِمِثْله ، فَعَجزوا عَجْزًا بيِّنا مع شِدَّة طَلبهم لذلك ، وَرَغبتهم فيه . تحدَّاهم أن يأتوا بعشر سور مثله أوّلاً ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود : ١٣] .

ثم تحدَّاهم أن يأتوا بسورة واحدة ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣] .

هذا التَّحدي الواثق الذي دَعَاهم مجتمعين مُستعينين بمن يشاؤون ، دحض حجتهم وأبْطَل دعواهم ، وهم أصحاب فصاحة ولَسَن وأهل بلاغة وبيان ؛ لأن رب السَّموات والأرض الذي أنزله بالحق يقول : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الاسراء : ٨٨] .

ومن ثم هَدَى الله الذين آمنوا به إلى أن يتدبروا آياته ، وقد دعاهم إلى هذا التدبُّر بقوله : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

وقوله : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٢٤] .

وقد أخذ هذا التدبر وجوها من النظر ، وضروبا من التأمل ، وقد آمنوا بأن النُّور الذي أنزله رب العالمين معجز في كل جانب من جوانبه ، ونهضوا على مدى القُرون السالفة يحاولون الكشف عن هذا الإعجاز .

وقد دَار هذا الإعجاز في معظم جوانبه على الإعجاز اللغوي . وإن كان يظهر بين الحين والآخر في العصر الحديث حديث عن الإعجاز العلمي حينًا ، وحديث عن الإعجاز العددي حينًا ، وغير هذا وذاك من صُنوف الإعجاز الذي يكشف عن حُبّ صاحبه وقوة إيمانه أكثر مما يكشف عن التوفيق في بيان وجه الإعجاز المأمول .

وإني لأعتقد أن الإعجاز القرآني بكل صُنوفه وأَلوانه كامن في لفظه الكريم وتركيبه العظيم ، فالدّلالة هي الوجه الآخر للتركيب ، وهي متضمنة في هذا التركيب تحتاج إلى كشف وبيان .

وبما أن كتاب الله الكريم صالح لكل زمان ومكان فإن دلالته كذلك ونصّه كذلك . وتعدّد ألوان التفسير مع تجدد الزمن دليل قوي على أن القرآن ليس له تفسير واحد ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦] .

ولايَزال عطاء القرآن موصولا غير مجذوذ ، وفيضه ممتدًا غير مقطوع ، وسوف يظهر مع تجدد الزّمن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من يحاول أن يستكشف في آياته شيئا لم يقل من قبل ، ويَصل في بيانه إلى معنى لم يَصل إليه أحد من السالفين .

وهذه الصفحات القليلة تحاول شيئا من هذا العطاء القرآني الموصول ، معتمدةً على تعدد أوجه الإعراب في

الجملة القرآنية ، راجية من الله التوفيق والسَّداد .

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا وهداية بصائرنا ، وشفاء صدورنا ، ودليلنا إلى صراطك المستقيم .

محمد حماسة عبد اللطيف

القاهرة في : ١٦ شوال ١٤٢٩هـ

الموافق ٥ / ١٠ / ٢٠٠٩م

تمهيد

للقرآن نمطه الخاص في التركيب الذي يكمن فيه كثير من أسرار إعجازه ، وتعدد وجوه هذا الإعجاز ، إذ يجد المتمرس بأساليب العربية وطرائقها في التعبير أن نمط الجملة العربية في القرآن فرد متميز .

وقد حاول العلماء على مرّ العصور معرفة سرّ هذا الإعجاز الخالص المتجدد وجهدوا في البحث عن سبله ، وانتهجوا في ذلك وجهات مختلفة تختلف باختلاف . زوايا النظر[1] وإن كانت جميعًا ترمي إلى غاية واحدة .

وقد رأى الأكثرون من أهل النظر أن إعجاز القرآن إنما هو من جهة بلاغته ، وصاروا « إذا سُئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن ، الفائقة في وصفها سائرَ البلاغات ، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع

---

(١) انظر : ما لخصه السيوطي من وجهات النظر المختلفة في بيان إعجاز القرآن في كتابه « الإتقان في علوم القرآن » الجزء الثاني من صفحة ١٩٧ إلى صفحة ٢١٢ ط حجازي ١٣٦٠ هـ .

الكلام الموصوف بالبلاغة ، قالوا : إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر ، فقام به مباينةُ القرآن غيرَه من الكلام ، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربًا من المعرفة لا يمكن تحديده ، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذي يقع منه التفاضل ، فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك ، ويتميز في أفهامهم قبيلُ الفاضل من المفضول منه » .

وقالوا : « وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذَوي العلم والمعرفة به » .

وقالوا : « قد توجد لبعض الكلام عُذوبة في السمع وهَشَاشة في النفس لا توجد مثلها لغيره منه ، والكلامان معًا فصيحان ثم لا يُوقف لشيء من ذلك على علة » (١) .

---

(١) « بيان إعجاز القرآن » للخطابي : ٢٤ (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله أحمد و د . زغلول سلام – ذخائر العرب ١٦) وقد ردَّ الخطابي على هذا المذهب بأنه لابد أن يكون لهذه المحاسن سبب حاول شرحه في رسالته المشار إليها ، وبالغت الدكتورة بنت الشاطئ فرمت أصحاب هذا الإتجاه بالجهل . (انظر : الإعجاز البياني للقرآن : ١٢١ ، دار المعارف بمصر) .

وموقف هؤلاء ـ برغم ما قيل عنه ـ يكشف عن إعظامٍ لجلال القرآن وإكبار لأسرار إعجازه ، إذ يستصغرون كل سبب دون إحكام بلاغته ، ولا يجدون فيما يقدم لشرح إعجازه ما يعدل هذه المكانة العليا من البيان المعجز ، وهم يسلمون مع غيرهم بأن نظم القرآن ـ على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه ـ « خارجٌ عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد »(١) مصداقًا لقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الاسراء : ٨٨] .

ولكن هذا لم يمنع الباحثين من مواصلة البحث عن سر هذا الإعجاز وتلمس أسبابه .

والذي أود أن أعرض له هنا مسألة لم يعرض لها أحد

---

(١) « إعجاز القرآن » للباقلاني : ٣٥ (تحقيق السيد أحمد صقر – دار المعارف) .

من قبل ـ في مبلغ علمي ـ على أنها وَجْه من وجوه إعجاز القرآن ، وهي تعدد أوجه الإعراب في الجملة الواحدة ، ويكون لكل وجه منها ـ من غير شك ـ معنى يُراد وغاية تقصد . وأعتقد أنه ليس هناك من يجادل في أن لغة القرآن الكريم « لغة مكتوبة » .

واللغة المكتوبة تفتقد إلى عنصرين مهمين في تحديد المراد من الحديث المنطوق :

أولهما : ما يُلابس الموقف اللغوي من حركات باليد والجسم والرأس وتعبير بالوجه والعين وغير ذلك ، وهذا قد يغني أحيانًا عن ذكر بعض العناصر اللغوية .

ثانيهما : ما يُصاحب الكلام المنطوق من علو في الصوت أو انخفاض فيه وضغط على بعض الكلمات دون بعضها أو ما يمكن أن يسمى عنصر « التنغيم » ، والتنغيم يقوم بدور مهم في الحديث المنطوق إذ يكفي ـ أحيانًا ـ مط كلمة في بيان المراد منها ، ولذلك تحذف صفتها مثلاً ، وقد شرح ابن جني هذه المسألة بعبارة واضحة إذ

يقول : « وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها »[١] ، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب (يقصد سيبويه) من قولهم : سِيرَ عليه ليلٌ ، وهُمْ يريدون : ليلٌ طويلٌ .

وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها ، وذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل أو نحو ذلك .

وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأملته ، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه ، فتقول : **كانَ والله رجلاً !** فتزيد في قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة ، وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها ، وعليها ، أي رجلاً فاضلاً أو شجاعًا أو كريمًا أو نحو ذلك .

وكذلك تقول : **سألناه فوجدناه إنسانًا !** وتمكّن الصوتَ بإنسان وتفخّمه فتستغني بذلك عن وصفه بقولك : إنسانًا سمحًا أو جوادًا أو نحو ذلك .

---

(١) مراده بالحال : الموقف اللغوي الذي يكون فيه الحديث وما يصاحبه من ملابسات حركية وصوتية وغيرهما .

وكذلك إنْ ذممته ووصَفْتَهُ بالضيق قلت : **سألناه وكان إنسانًا** ! وتزوي وجهك وتقطبه ، فيغني ذلك عن قولك : إنسانًا لئيمًا أو لَحِزًا أو مُبَخَّلًا أو نحو ذلك »(١) .

وقد اختلف النحاة في توجيه كثير من الجمل القرآنية ، وعاب بعض المحدثين عليهم هذا الاختلاف ، ولكن النحاة كانوا يحاولون بتوجيهاتهم المختلفة أن يقدموا عدة احتمالات للغة العليا التي تفتقد إلى ملابسات الحال أو الموقف اللغوي في حال النطق .

فتعدد الأوجه الإعرابية في هذه الحال لا يمكن أن يُعَدَّ دليلاً على عدم أهمية الإعراب أو على الترخص في العلامة الإعرابية ، ولكنه تفسيرٌ للغة المكتوبة ، وإسباغ مواقفَ ملائمةٍ لكل حالةٍ أو وجهٍ من الوجوه .

وتعدد أوجه الإعراب بهذا الفهم ضربٌ من ضروب إعجاز القرآن ودليلٌ على ثراء نصه وخصوبة عطائه وتعدد

---

(١) « الخصائص » لابن جني ٢ / ٣٧٠ ، ٣٧١ (ط دار الكتب ١٣٧٤ هـ ، تحقيق : محمد علي النجار) .

إشعاعه بحيث تبدو الجملة القرآنية كالماسة المشعة أنّي استقبلْتها ألقَتْ عَلَيْكَ بأضواء .

وفي كثير من هذه الأوجه الإعرابية المختلفة كان النحاة يهتدون بقراءة أخرى ، أو بآية أخرى في موضع آخر ، وقد قرروا « أن القراءة لا تُخَالفُ لأنها السُّنَّة »(١) ، ومن المعروف أنّ « القراء لا تقرأ بكل ما يجوز في العربية »(٢) .

وإذا كان فقدان عنصري ملابسة الحال والتنغيم قد ساعد على القول بتعدد الأوجه الإعرابية ، فإن منهج النحاة في النظر إلى اللغة أيضًا قد ساعد من جانب آخر على ذلك ، وسوف أجمل هذه الأسباب مع ذكر نماذج من الآيات القرآنية لكل منها .

۞ ۞ ۞

---

(١) « الكتاب » لسيبوية ١ / ١٤٨ (تحقيق : عبد السلام هارون ط . دار القلم) .

(٢) « معاني القرآن » للفراء ١ / ٢٤٥ (ط . دار الكتب) .

المبحث الأول
الإعجاز في الحذف في الجملة

قد يتفق النحاة على أن هناك عنصرًا محذوفًا في الجملة ، ولكنهم يختلفون في تحديد هذا المحذوف ، وتتعدد أوجه الإعراب بسبب الاختلاف في تقديره .

ومما تعدَّدت فيه الأوجه الإعرابية بسبب الاختلاف في المحذوف قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٠] حيث ترفع كلمة إخوانكم على تقدير ضمير « فهم » كأنك قلت : « فهم إخوانكم » . يقول الفراء : « ولو نصبته كان صوابًا ، يريد : فإخوانكم تخالطون . ومثله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٥] ، ولو نصبت ههنا على إضمار فعل : ادعوهم إخوانكم ومواليكم . وفي قراءة عبد الله : ﴿ إنْ تعذبْهم فَعِبادُك ﴾ ، وفي قراءتنا ﴿ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : ١١٨] [1] خبر مرفوع ، وإن قدرت

---

(١) « معاني القرآن » للفراء ١ / ١٤١ ، ١٤٢ ، وانظر : ٤٢٥ .

فعلاً فالضميمة المذكورة مفعول به ، وهنا تكون كلمة ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ جملة فعلية .

وعلى التقدير الأول جملة اسمية ، والمعنى لابد أن يختلف باختلاف التقدير ، ولكن الاختلاف هنا دقيق ولطيف غاية في الدقة واللطف ، فإذا كانت الجملة « فهم إخوانكم » فالمعنى أن هذا شيء ثابت مُقَرّر ولا غضاضة فيه ، وإذا كانت « فإخوانكم تخالطون » فالمعنى أن لا بأس من استحداث هذه السنة الحميدة مع إخوانكم .

وكتب إعراب القرآن مليئة بهذا النوع من تعدد الأوجه ، وبعضها لم ترد به قراءة كما في الحالة السابقة التي قيست فيها آية البقرة على آية المائدة ، وبعضها الآخر وردت به قراءة أو أكثر ، ومن نماذجه قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٦٤] .

فقد قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي بالرفع ﴿ مَعْذِرَةٌ ﴾ وروى حسين الجعفي عن أبي بكر وحفص عن عاصم ﴿ مَعْذِرَةً ﴾ نصبًا وهي إحدى

روايتين عن عاصم (١) يقول الفراء : « وأكثر كلام العرب أن ينصبوا المعذرة ، وقد آثرت القراء رفعها ، ونصبها جائز ، فمن رفع قال : هي معذرة ، كما قال : ﴿ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] (٢).

وقد وجّه ابن خالوية قراءتي الرّفع والنصب في الآية قائلاً : « فالحجة لمن قرأه بالرفع أنه أراد أحد وجهين من العربية أما أن يكون أراد : قالوا : موعظتنا إياهم معذرةٌ ، فتكون خبر ابتداءٍ محذوف أو يضمر قبل ذلك ما يرفعه كقوله : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا ﴾ [النور : ١] ـ يريد : هذه سورة . والحجة لمن نصب أن الكلام جواب ، كأنه قيل لهم : تعظون قومًا هذه سبيلهم ؟ قالوا : نعظهم اعتذارًا ومعذرةً » (٣) .

وهكذا نجد أن النحاة يحاولون أن يرسموا موقفًا لغويًا

(١) انظر : « السبعة في القراءات » ٢٩٦ (تحقيق د. شوقي ضيف ـ دار المعارف) .

(٢) « معاني القرآن » للفراء ١ / ٢٠٥ .

(٣) « الحجة في القراءات السبع » لابن خالويه : ١٤١ (تحقيق : د . عبد العال سالم مكرم) .

حيًا بحيث تبدو العلامة الإعرابية فيه مؤدية لدورها الصحيح .

يقول أبو حيان في محاولة منه لبيان ما يدل عليه رفع كلمة ﴿ معذرة ﴾ ونصبها : « وقرأ الجمهور ﴿ مَعْذِرَةٌ ﴾ بالرفع أي : موعظتنا إقامة عذر إلى اللّه ، ولئلا ننسب في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط ، ولطمعنا في أن يتقوا المعاصي . وقرأ زيد بن علي وعاصم في بعض ما روي عنه وعيسى بن عمر وطلحة بن مصرف ﴿ مَعْذِرَةً ﴾ بالنَّصْب ، أي وعظناهم معذرة[١] ، فالنَّصْب هنا لإفادة تعليل الموعظة ، وقد قال أبو البقاء العكبري مَنْ نَصَبَ فعلى المفعول له ، أي وعظنا للمعذرة ، وقيل : هو مصدر أي نعتذر معذرة »[٢] فهو إذن مفعول مطلق يؤكد الاعتذار .

❊ ❊ ❊

(١) « البحر المحيط » لأبي حيان ٤ / ٣١٢ .

(٢) « إملاء ما من به الرحمن » للعكبري ١ / ٢٨٧ .

المبحث الثاني
الإعجاز في نغمة الوقف والابتداء

أشرت من قبل إلى أن النص القرآني يعد « نصًا مكتوبًا » ، وهو لذلك يفتقد عنصر التنعيم الذي قد يغني عن بعض الأدوات ، كأدوات الاستفهام على سبيل المثال .

ولما كان القرآن الكريم يعد نصًا مكتوبًا فقد حاول النحاة تبيين ما تتحمله الجملة القرآنية من دلالات ، ويدخل تحت عنصر التنغيم نغمة الوقف والابتداء ، وهناك مؤلفات مستقلة في هذا المجال أشهرها الوقف والابتداء لابن الأنباري المتوفى سنة (٣٢٨ هـ) .

ومن نماذج ذلك : إعراب ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ﴾ [آل عمران : ٧] ، فقد تكون معطوفة على لفظ الجلالة ، وقد تكون مبتدأ خبره (يقولون) .

يقول العكبري : « والراسخون معطوف على اسم الله ، والمعنى أنهم يعلمون تأويله أيضًا ، و ﴿ يَقُولُونَ ﴾ في

موضع نصب على الحال ، وقيل : و ﴿ ٱلرَّٰسِخُونَ ﴾ مبتدأ و ﴿ يَقُولُونَ ﴾ الخبر ، والمعنى : أن الراسخين لا يعلمون تأويله بل يؤمنون به[(١)] . وقد رجّح الفراء الإعراب الثاني مُستدلاً بقراءة أُبَيّ وعبيد الله[(٢)] ، ففي قراءة أبيّ ﴿ ويقول الراسخون ﴾ ، وفي قراءة عبد اللّه : ﴿ إنْ تأويله إلا عند اللّه والراسخون في العلم يقولون ﴾ .

ومما لاشك فيه أن فقدان التنغيم هو الذي دفع النحاة إلى هذا المَسْلك فقدّموا ما يمكن أن تكون عليه الجملة ، ولاشك أن نغمة العطف ـ في الحديث ـ تختلف عن نغمة الاستئناف وابتداء جملة جديدة ، ولعل هذا ـ كما قلت ـ من إشعاعات النص القرآني ، إذ ينبني على كل وجه معنى مختلف عن المعنى الذي يفيده وجه آخر ، وبتعدد الأوجه تتعدد المعاني ، وبذلك يتيح النص القرآني فرصة للاجتهاد .

---

(١) « إملاء ما مَنَّ به الرحمن » للعكبري ١ / ١٢٤ .

(٢) انظر : « معاني القرآن » للفراء ١ / ٢٠٥ .

ولعل هذه الآية التالية أوضح في الدلالة على ما نحن بصدده ، ففي قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ ﴾ [يوسف : ٦٥] ، قالوا : إن ﴿ مَا ﴾ استفهامية ، ويجوز أن تكون نافية[١] ، ولعله من الوضوح بمكان أن نغمة الاستفهام تغاير نغمة النفي ، وهناك في الكتاب العزيز نماذج أخرى كثيرة .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ [الكهف : ٢٨] ، قد تكون جملة « تريد زينة الحياة الدنيا » في موضع الحال ، فيكون التقدير : ولا تعد عيناك عنهم مُريدًا زينة الحياة الدنيا . وقد تكون استئنافية وتكون استفهامية حذفت منها أداة الاستفهام ، ويكون في هذا من العتب ما فيه ، إذ يستنكر عليه أن يكون مريدًا زينة الحياة الدنيا .

---

(١) انظر : « معاني القرآن » ٢ / ٤٩ ، و « إملاء ما مَنَّ به الرحمن » ٢ / ٥٥ ، و « البيان في غريب إعراب القرآن » ٢ / ٤٣ .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾ [التحريم : ١] يجوز في جملة ﴿ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾ أن تكون جملة حالية ، أو جملة مستأنفة استفهامية حذفت منها الأداة ، وهذا مما تفعله العربية اعتمادًا على نغمة الكلام .

❀ ❀ ❀

المبحث الثالث
الإعجاز في الكلمات التي لا تظهر عليها علامات الإعراب

في العربية كلمات كثيرة لا تظهر عليها علامات الإعراب ، ومنها المكنى الذي لا يعرب وهو الضمير : « والمكنى لا يعرب ؛ لأن المكنى يضارع المبهم »[١] ، كما يقول ابن خالويه . ومعنى كونه لا يعرب أنه لا تظهر عليه علامة الإعراب ، وإلا فإننا نعربه أي نبين وظيفته النحوية في الجملة فنقول : إنه فاعل أو مفعول به أو مبتدأ أو خبر إلى آخره ، ومن ذلك الاسم الموصول ، ويسميه ابن خالويه الاسم الناقص « ولا علامة فيه ؛ لأنه اسم ناقص يحتاج إلى صلة وعائد »[٢] .

وهكذا كل الأسماء المبنية ، وكذلك الاسم المقصور لا يتبين فيه الإعراب ؛ لأن آخره ألف مقصورة ،

(١) « إعراب ثلاثين سورة » لابن خالويه : ٤٨ .

(٢) السابق : ٥٥ .

والمضاف إلى ياء المتكلم لا علامة فيه كذلك ؛ لأن الياء تذهب بالعلامة[١] .

ومع خلو هذه الأسماء من علامات الإعراب قرَّر النحاة أن هناك علامات إعرابية مُقَدَّرة ، وتقدير العلامة ليس إلا مُراعاة للحالة الإعرابية أو للوظيفة التي تشغلها الكلمة في الجملة والربط بين هذه الوظيفة وعلامتها الإعرابية ، ومن المقرر أن تحديد وظيفة الكلمة في الجملة لا يتم إلا بسبب تضافر مجموعة من القرائن المختلفة من لفظية ومعنوية ، ولذلك يمكن إعراب الكلمة الخالية من العلامة الإعرابية بحيث لا تظهر فيها العلامة الإعرابية على الإطلاق ، وإعرابها في هذه الحال لا تقوم به العلامة ولا تدل عليه ، وإنما الذي يدل عليه فهم قرينة السياق التي تصب فيها كل القرائن الأُخرى ، وقد يقدم النحاة عدة احتمالات في الجملة القرآنية الواحدة يتقبلها السياق ويستجيب لها المعنى .

---

(١) انظر : المصدر السابق : ٥٤ ، ٧٩ .

ومن أمثلة ذلك : ما قالوه في إعراب قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١ ، ٢] ، حيث قالوا : « إن ﴿ هُدٗى ﴾ » يحتمل أن يكون في موضع رفع ونصب .

فالرفع من أربعة أوجه :

الأول : أن يكون خبر مبتدأ مقدر ، وتقديره : هو هدى .

والثاني : أن يكون خبرًا بعد خبر ، فيكون ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ مبتدأ ، و ﴿ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ عطف بيان ، و ﴿ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾ خبر أول ، و ﴿ هُدٗى ﴾ خبر ثان .

والثالث : أن يكون مبتدأ و ﴿ فِيهِۛ ﴾ خبره ، والوقف على هذا القول على ﴿ لَا رَيۡبَۛ ﴾ .

والرابع : أن يكون مرفوعًا بالظرف على قول الأخفش والكوفيين ، والنصب على الحال من (ذا) أو من ﴿ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ أو من الضمير في ﴿ فِيهِۛ ﴾ ، فإن جعلته حالاً من (ذا) أو من الكتاب فالعامل فيه معنى الإشارة ، وإن جعلته حالاً من الضمير فالعامل فيه معنى الفعل

المقدر وهو استقر »[1] .

ويتجاوز الزمخشري هذه الأوجه الإعرابية المختلفة إلى ما يترتب عليها من الفهم والمعنى فيقول : « والذي هو أرسخ عرقًا في البلاغة أن يضرب عن هذا المقال صفحًا وأن يقال : إن قوله ﴿ الٓمٓ ﴾ برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، و ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ جملة ثانية و ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ثالثة ، و ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متآخية آخذًا بعضها بعنق بعض ، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها ، وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة ، بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدَّى به ، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال ، فكان تقريرًا لجهة التحدي ، وشدًّا من أعضاده ، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب ،

(١) « البيان في غريب إعراب القرآن » لابن الأنباري ١ / ٤٥ ، ٤٦ ، وانظر : « إملاء ما مَنَّ به الرحمن » للعكبري ١ / ١٠ ، ١١ ، وقارن بمعاني القرآن للفراء ١ / ١ ، ١٢ .

فكان شهادة وتسجيلاً بكماله ؛ لأنه لا كمال أكمل مما للحقّ واليقين ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة ... ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين ، فقرّر بذلك كونه يقينًا لا يحوم الشك حوله ، وحقًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم السري من نكتة ذات جزالة . ففي الأولى[١] الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه ، وفي الثانية[٢] ما في التعريف من الفخامة ، وفي الثالثة[٣] ما في تقديم الريب على الظرف . وفي الرابعة[٤] الحذف ووضع المصدر الذي هو هدى موضع الوصف الذي هو هاد وإيراده منكرًا والإيجاز في ذكر المتقين[٥] .

---

(١) وهي قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴾ .
(٢) وهي قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ .
(٣) وهي قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ .
(٤) وهي قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .
(٥) « تفسير الكشاف » للزمخشري ١ / ٢١ .

ولعلك رأيت معي أن الزمخشري قد حاول أن يرتب معنى على اعتبارات تقسيم هذه الآية إلى تلك الجمل ، مع أن هذه الآية تحتمل أوجهًا أخرى غير التي ذكرها ، والذي أعان على هذا كله هو أن بها بعض الكلمات التي لا تظهر عليها علامات الإعراب ، إما لأنها مبنية مثل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ، أو لأنها اسم مقصور مثل ﴿ هُدًى ﴾ .

ونماذج هذا الضرب في القرآن الكريم كثيرة جدًا وتجد صَداها في كتب التفسير وكتب إعراب القرآن .

۞ ۞ ۞

المبحث الرابع
الإعجاز في اشتراك أكثر من وظيفة في علامة واحدة

في العربية عدد محدود من علامات الإعراب يتوزع على الوظائف النحوية المختلفة ، وبطبيعة الحال لابد أن تشترك أكثر من وظيفة نحوية في علامة واحدة كاشتراك وظيفة المبتدأ والخبر والفاعل ونائب الفاعل واسم كان وخبر إن في الرفع ، واشتراك المفاعيل الخمسة والحال والتمييز والمنادى المصوب مثلاً في النصب .

ومن هنا لا يمكن القول بأن العلامة الإعرابية وحدها هي التي تحدد المعنى النحوي المعين ، بل لابد من أن تكون هناك في الجملة وسائل أخرى تعين على تحديد هذا المعنى النحوي ، وهي ما سماها الأستاذ الدكتور تمام حسان « القرائن »[(١)] ، وبسطها على مدى كتاب بأكمله وشَرَح القول فيها .

---

(١) انظر : « اللغة العربية معناها ومبناها » للدكتور تمام حسان .

وهنا نجد أن اشتراك أكثر من معنى نحوي كالفاعلية والابتداء والخبرية وغيرها في علامة الرفع مثلاً كان مدعاة لتعدد الأوجه الإعرابية في الكلمة الواحدة ، وبخاصة في الجملة القرآنية .

ومن ذلك : أننا نجد النحاة في إعراب قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة : ٧] يجيزون في ﴿ غَيْرِ ﴾ الجر والنصب ، ويلفت النظر هنا أن الجر علامته واحدة في هذه الكلمة ومع ذلك تتعدد المعاني المرتبطة به .

يقول ابن الأنباري : « فأما الجر فمن ثلاثة أوجه : أحدها : أن يكون مجرورًا على البدل من الضمير في ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ . والثاني : أن يكون مجرورًا على البدل من ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ . والثالث : أن يكون مجرورًا على الوصف (للذين) لأنهم لا يقصد بهم أشخاص مخصوصة فجرى مجرى النكرة ، فجاز أن يقع وصفًا له ، وإن كانت مضافة إلى معرفة[١] فعدم

(١) « البيان في غريب إعراب القرآن » لابن الأنباري ١ / ٤٠ ، وانظر : « معاني القرآن » ١ / ٧ .

تحديد المبدل منه ، وعدم تحديد البدلية من النعتية أجاز هذه الأوجه المختلفة وسوغ ذلك اشتراكها في هذه الحالة في علامة إعرابية واحدة .

وبيّن الزمخشري ما يترتب من المعنى على كون ﴿ غَيْرِ ﴾ بدلاً أو صفة فيقول : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ بدل من ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضلال ، أو صفة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهي نعمة الإيمان وبين السلامة من غضب الله والضلال »[(١)] .

وقيل في نصبه : إما أن يكون منصوبًا على الحالية ، أو بتقدير (أعني) فيكون مفعولاً به أو على أنه استثناء منقطع ، وقد سوغ هذه الأمور اشتراكها في علامة إعرابية واحدة ، ولكل وجه منها معنى يراد وغاية تطلب .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذا جانب حاولت أن ألفت

---

(١) « الكشاف » للزمخشري ١ / ١١ .

النظر إليه ، وإني لأعلم أن كثيرين ينفرون من دراسة النحو لأسباب كثيرة منها هذه الأوجه المتعددة ، ولكنهم لو راضوا أنفسهم عليها لفقهوها . وهي ليست بالعسيرة على كل حال .

وقد بذل النحاة جهدًا كبيرًا في كل لغة مكتوبة ـ وكل تراثنا مكتوب ـ وحاولوا تقديم بديل عن الموقف اللغوي الذي يكون الكلام فيه محوطًا بملابسات أخرى تجعل للجملة الواحدة معنى واحدًا مقصودًا ، أما اللغة المكتوبة ـ وأخص من بينها القرآن الكريم ؛ لأن هذه السمة تكاد تكون خاصة به ـ فإنها تحتاج إلى توضيح لموقفها .

ولا يتم ذلك إلا ببيان الإمكانات المحتملة في أوجهه الإعرابية ، وقد قدم النحاة للقرآن الكريم كثيرًا من الجهد ـ ولا غرابة في ذلك فقد قامت الدارسة اللغوية كلها من أجله ـ فيما يسمى بكتب مجاز القرآن أو معاني القرآن أو إعراب القرآن أو كشف مشكله ... إلخ .

وليس هناك من فرق بين المجاز والمعاني والإعراب ،

فكلها جهود صادقة مخلصة تحاول الكشف عن بعض أسرار هذا الكتاب الخالد ، ولكنهم لم يشيروا إلى أنّ هذا الجانب يعد من إعجاز القرآن العظيم [١] .

۞ ۞ ۞

(١) لا ينقض هذا محاولة عبد القاهر الجرجاني الفذة في فهم أسرار الإعجاز القرآني من خلال « النظم » الذي يجعله مرتبطًا بمعاني النحو ، فإن عبد القاهر قد تعامل مع الآيات القرآنية على الوجه الذي وردت به في القراءة المعروفة ، وعلى الوجه الأظهر في الإعراب ، ولم يشر إلى أن تعدد وجه الإعراب في الجملة الواحدة يعد من أوجه الإعجاز القرآني ، والذي أود الإشارة إليه أن محاولة عبد القاهر تتعامل مع وجه واحد من وجوه الجملة القرآنية ، وما أقول به أن الجملة التي تحتمل أوجهًا أخرى يعد كل وجه منها جملة معينة تحتاج إلى فهم جديد ، وقد يترتب على هذا الوجه أو ذاك حكم فقهي يتخذه بعض المسلمين أساسًا في التعبد والمعاملة ، وهذا هو الجانب الذي ألفت النظر إليه ، وأدعو إلى إعادة بحثه من زاوية الإعجاز القرآني .

الخَاتِمَة

الصّفحات السابقة إشارة يسيرة إلى هذه الفكرة العظيمة ، وهي أن تعدد الأوجه في الجملة القرآنية يعد من أوجه إعجاز القرآن العظيم . ولعلّه من المعروف المألوف أنّ كُتبا كثيرة تَناولت هذه المسألة ، ومنها كُتُب إعراب القرآن ، وبعض كتب التّفسير ، وكُتُب القِراءات القرآنية وغيرها من كتب علوم القرآن .

ولكنها جميعا ، كما أسلفت الإشارة ، لم تُشِر إلى أنّ هذا الجانب يُعَدُّ من الإعجاز القرآني . والواقع أنّ هذه مَيزة تفرّد بها النصّ القرآني العظيم لا نكاد نجدها في كلامٍ غيره شِعْرًا أو نثرًا ، وإن وُجدت على استحياء في بعض النّصوص فإنها لا تمثل ظاهرة فيها .

ولّما كان كل وَجْهٍ يحمل معنىً ؛ فإن الجملة الواحدة في ظاهرها تعدّ أكثر من جملة بعدد ما تتحمله من وجوه .

وهذا ما يجعل هذه الظّاهرة أَحد أَوجه الإعجاز القرآني المتعدد الوجوه ؛ لأن القرآن الكريم بهذه الأَوْجه المحتملة

يَصير صالحًا لكل زمانٍ ومكانٍ مهما تَطَاولت الأَزمنة ، وتعدَّدت الأمكنة .

لقد حرصت في الصَّفحات اليسيرة السابقة على أَنْ أقدم أمثلة أهم الأسباب في نظام النحو العربي الذي نشأ أَصلاً لخدمة القرآن الكريم التي تسمح بوجود هذه الأوجه ، وأن أُقَدِّم للتدليل عليها فحسب ولم أَستقص أو أُحْص كل ما جاء على وفاقها وهي كثيرة جدًا ، ويكفى أن تنظر في كتاب ابن الأنباري أو العكبري أو في بعض كتب التفسير أو القراءات لتقف على الكثير منها وتعجب لهذه القُدرة الإلهية العظيمة التي جعلت آيات الكتاب المبين على هذا النحو وصدق الله العظيم ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الاسراء : ٨٨] .

إن الأسباب التي ذكرتها في نحونا العربي كما هي موجودة في القرآن الكريم موجودة في غيره ، فلماذا ينفرد النَّص القرآني أو يكاد بجلاء هذا التَّعدد في الوجوه وكثرته ؟

ينبغي ألا يُقال إِن النحاة وعلماء القرآن بذلوا جهدًا كبيرا مع القرآن حتى كشفوا هذه الوجوه وجلوها وبيّنوها ؛ لأن كثيرا منهم أيضا بذلوا مثل هذا الجهد أو قريبًا منه مع نُصوص الحديث الشريف ، ومع الشِّعر العربي القديم ، ولم يقفوا من هذه النصوص على مثل ما وقفوا عليه من القرآن الكريم .

لا يبقى إذن إلا أن هذا شيء اختص الله ـ سبحانه وتعالى ـ به كتابه الكريم بشيءٍ أراده ليدعونا إلى تدبّره والتّفكر فيه ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] ، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٢٤] .

إِنّه كلما تدبرنا القرآن انْكشَف لنا وَجْه من وجوه إعجازه . اللّهم ارزقنا القُدْرة على هذا التدبّر ، وأَعِنّا عليه ، وَوَفّقنا إليه .

المصادر والمراجع

١ـ ابن الأنباري ، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن أبي سعيد ، البيان في غريب إعراب القرآن ، تحقيق د. طه عبد الحميد .

٢ـ الباقلاني ، إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر – دار المعارف .

٣ـ بنت الشاطئ د. عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البياني للقرآن دار المعارف بمصر .

٤ـ د. تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

٥ـ الجرجاني ، عبد القاهر دلائل الإعجاز ، تحقيق محمود محمد شاكر .

٦ـ ابن جنى ألو الفتح عثمان ، الخصائص ، تحقيق محمد على النجار ، ط دار الكتب ١٣٧٤هـ .

٧ـ أبو حيان ، محمد بن يوسف بن علي ، البحر المحيط ، القاهرة مطبعة السعادة ١٣٢٨هـ .

٨ـ الخطابي ، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله أحمد و د. زغلول سلام – ذخائر العرب ١٦ .

٩ـ الزمخشري ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، القاهرة ١٣٥٤هـ .

١٠ـ سيبوية أبو بشر عمرو بن قنبر ، الكتاب ، المطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٧ هـ .

١١ـ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، الإتقان في علوم القرآن ، ط حجازي ١٣٦٠هـ

١٢ـ العكبرى ، عبد اللّه بن الحسين بن عبد اللّه ، إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات ، تحقيق وتصحيح إبراهيم عطوه عوض ١٩٦٩م .

١٣ـ الفراء ، أبو زكريا يحيى بن زياد ، معاني القرآن ، الجزء الأول تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد على النجار – ط دار الكتب ١٩٥٥م .

١٤ـ ابن مجاهد ، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس ، السبعة في القراءات ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف – دار المعارف ١٩٧٢م .

۞ ۞ ۞ ۞

